البساطة والألم

عبد الرحمن طهمازي

لننظر ما يحدث...

الطفلة تتأفف، تدور حول غضبها وتعالجه. لها عزلتها الشريرة، كانت تتريث في طريقها وكأنها في مهد توتي الراحة. ومن بعيد رأت غزالة. رأت فيها المساواة. البعد الكثيف. قالت لامها: جمالك سيظل يشفي. اريد رغيفاً مختصراً. لا. ليس كهذا الذي في الصورة. بالميمة: اريده صغيراً. لا. لا مادمت صامتة.

قالت أمها: ماذا؟

نامت الطفلة. تمنت الام الشابة ان تكون الاحلام مهذبة. دلت كهفاً للمطاردات اللصيقة. ليس في الجنة زمن. طوبى، منذ ابراهيم والغيمة تتبع الخشف الوليد في حزيران. الذكور في الصيدة والاناث طريدات. لهن رائحة الطرائد. بدأت محاكمة اليقظة في دولاب النوم. فكل شيء له علاقة بأي شيء. استمر الكهف مطوياً: اهو سبيل؟ الهمه اللهو تعلميه الخالد؟ تلك موسيقى فرت الى الجوانب. ليس لها ضغط الآلات. ذلك عمود يمسح قوته بتجاربه التوافقة. الماء. الماء. لم يكن دجلة حاراً يوماً ما. التمرة المقلوبة قالت: تأكدي من لطفك. لا فخر لي. اخجل من جوعي الذي تسولت ونسيته. أين امضي؟ من يتمي الى عقمك؟

قلب الكابوس صفحة الطفلة وصححها. وضعت يدها اليمنى تحت خدها الايمن. انتظمت أنفاسها المحترمة. لم يكن الليل خيالياً. كان خيالها متأثراً بثوبها الضيق وعنادها اليائس.

تأرجحت ثانية في موضوعها المفهوم: الثقل المباغت لتهاون الفراسة فيها. لذلك سمعت بأذنيها كلتيهما الدعاء المريع للطبيعة، الاشجار التي خنقتها الجذور خنقاً متتالياً، الانهار التي لا امل لأرض فيها، الطيور التي لا اتجاه لها، البهائم التي تجمعت للفرار، الارض تزدرد وحشتها وتبلغ تاريخها الخاص، الهواء يتكرر ولا ينفع. كل شيء ينفرد بلحنه الواسع ويشيخ فارغاً.

هذه الاشياء اين تمضي؟ اي نصح تسديه لي؟

كل شيء يحصل على لغته غير حافل بمنفاه. كل شيء لا يستدير استدارته الاخيرة.

الغزالة الطيبة لا تفهم. العشب ينام نومته الخضراء، ويضع جانبه تركة القمر الطفيفة تحت رحمة الليل. الانفاس تورمت، أنظل نعطي ما نعطاه؟

لا ترجو الطفلة ان تكون كأمها، ولا تريد استبدالها. تذهب الى الطفولة وتتحسب للدهشة حتى تنفرد خالصة للضجر. من أيقظها وفك عنها النوم؟ ماذا تريد منها اليقظة المحرمة؟

ها هي امها تعير نومها الثقيل لنوم متعلق باليقظة، كان روحها المطلق لم يتقيد بعد بمماطلة الحياة.

الجوع يخاف خوفاً لا حياء فيه.

ساذهب الى قناعي المتلصص
الى وئيدي المتطفل الى

سريرتي المقلوبة ساذهب الى نومتي المبكرة التي يصلها اخير أحلمها العاجز ساذهب لالتهم وزني واحقق غموضي المتطاير.

عماه، عماه ما الذي حل بي يا عم؟

- معذورة، جذرك كمر مرآتك.

وصلت الام الشابة الى اللحن الذائب في الطفلة. سيسند عريها اللطيف جسدها، ناعمة البال، كما لو ان آدم قاد الخليقة الى الاستقرار عنده. اللعنة.

الطفلة لا تريد شيئاً. يريدها الموت الذي يستجيب حين لم تعد تتذكر الحياة.

-كيف أصل الى خجلك الثائر؟

حبك الذي يطوف على بقاياك المعافاة.

الى جوعك الذي لا يزلزل

الى نوعك الذي تريده الانواع ولا تسلبه

الى طولك حيث يتنامى النظر. كما عظماء العالم يرقون مبتسمين. اليك أمي؟

أرضى بالمرائي ولا أقولها.

اينتظرك امر؟

انا طريدة وعود مشلولة كالضوء. لست متكبرة فانتظر.

خذيني. خذي وعودي كما هي.

ساعطيك غداً الخبز. ستنسحب السعادة من تواضعنا. أين اذهب بك؟

قلبي مخذول كالمستقبل.

فتحت الطفلة عينيها. رأت فوضى قصتها مطوقة بالفتيات. ما هذه الشموع الوخمة. الرماد متى يتوازن؟ الفتيات يختلفن. الياس يفتح ظلامه ويبدد على الرؤوس. الشعب يمضي بعيداً عاضاً أسطورته النقية، مفروكاً بتقواه. موهوباً للاوقات المبعثرة. السنبلة لا أخلاق لها. لأن المجتمع بلا وصايا.

فتحت الطفلة عينيها. لا. لا. الطرق جاثمة. الجوع لا يقبل بساطة الطفلة.

وهو في هذيانه البارد لا يشم خبزاً. الطفلة قالت: لن أقيس اضطرابي.

ما أبخل الحقيقة.

ترانيم المغتربين

ألفريد سمعان

الترنيمة الأولى

يترنمون بما مضى
بكت الحروف... ترنحت
مما تراكم حولها
سأم... وحرمان... وآهات
اغتراب
شحذوا مفاخرهم
وفاضت نشوة الأقلام
والصرخات
وانتفخت سطور
نبتت على تلك... الأنامل
دمعة الأشجان
واحتضرت سواقي
الواحة الخضراء
واحتجزت حنين
الطير... للبستان
للربوات
للأمس المطرز
بالفراشات المضيئة
بالنسائم... والنخيل
زرعوا تحيات الصباح
على الخدود
لكنهم... يتوجسون
أحلى من الأرض التي
حملت
طفولتهم
أراجيح المنافي

الترنيمة الثانية

يترنمون بما مضى
يتجشمون متاعب المشوار
من مقهى... إلى مقهى
ومن منفى إلى منفى
ومن جدوى... إلى جدوى
ومن حضن إلى حضن
وراء نوافذ... القبلات
والأشواق
تغلسهم مراسيم الطهارة
ترتوي منهم كؤوس
الإثم
يستلقي على الشرفات
تواطؤ الأرداف والرعشات
تحجبهم
عن الوطن الذي ضاعت
معانيه لديهم
لم يعد
غير البكاء على الطلول
يشدهم... والذكريات

الترنيمة الثالثة

يترنمون بما مضى
وبما أتى
وبما اكتنزت به أحلامهم
يتحاورون مع طقوس الموت
ما بين العواصف والثلوج
من فوق رابية تطل على
الحقول
يتبادلون مع النجوم
شعائر الأنصار
وبعض ما ترويه أجنحة
الصقور
قمم
تلوذ بها القمم
وهدير إصرار على درء
الفجيعة
بالبنادق.. والزنود
باقات أمجاد
دروع كرامة
وحفيف أضواء
وأصداء انتصار
هجروا طقوس الخوف
واعتنقوا مزامير الكفاح
ألفوا... نهايات الترقب
وانتظار الزائر الوثني
وهو يمشط الطرقات
بالسرفات
وينسج حلة للموت
تلتمس الفضاءات القصية
يغرس رمحه... في القلب
يغتال المباهج... والبسمات
ينشر جمرة الأحقاد
ما بين أروقة الخمائل
والصخور
طوبى لهم
حرس التقاليد العريقة
والمبادئ
في الصراع مع الوحوش
طوبى
لكل فم يغرد للصباح
طوبى
لكل يد تلوح
بالغد المحفوف... بالتبعات
والمرسوم فوق وسائد
التاريخ
وصهوة الأمل الجديد

الترنيمة الرابعة

يترنمون بما مضى
وبما جرى
وبما يكون.. ولا يكون
لم تبتعد خطواتهم
بقيت مسمرة على أرض
الحضارات الوريفة
والحمامات الأليفة
والمواويل الجريحة
والمراقد
والشهادة
والحسين
لم ترتعش كلماتهم
لم يفتحوا الأبواب للريح
الطروب
ولم تنل
منهم طواحين النواعير
المعربدة
اللعوب
عبروا بتاريخ الغد المجهول
بالرايات
واقتحموا فيافي الرعب
بالكتمان
ما جفت سواقي الوعي
أو حادت عن التلويح
بالنصر الدروب

حملوا البشارة
سلة... للورد
أطياراً.. ملونة
والحاناً تهيم بها النسائم
ترتوي منها القلوب
نثروا على كهف الضلالة
والرؤى السوداء
أزهار الشروق

الترنيمة الأخيرة

طوبى
لا غنية تجوب منازل
الأحزان
تحضنها الشفاه
تشدنا
نحو الوطن

مات الشاعر

الى شاعر يتخفى الآن

وارد بدر السالم

قالوا مات الشاعر صدقنا وما صدقنا

كان جسده الفاخر ملقى على فراشه الوثير. تحف به اقحوانات غضة وتطير حول رأسه فراشات من نعاس، وعلى شفتيه ينطق مبسم طفولي يعيد صدى حميماً لاغنية لم تخرج بعد، وجدت انها قريبة للانعتاق في لحظة الاحتضار السريعة، لكنها لم تستطع الانفلات من حنجرة الشاعر المدججة بالقصائد والأوزان الجاهزة.

كان جسده الفاخر مهيمناً علينا، كأنما يكتنفه حلم طويل لا قرار له، وكأن وجودنا في هذه النهاية الاولى محض وهم وخطأ ومصادفة وقدر اعمى، فاضطربت فينا نشوة الانتصار وقتاً بدا لنا اطول من قصائده الشتوية. وغمرنا احساس عاجل من أن الشاعر سيجلس بعد دقائق ويتنقنا بمجمل قصائده العظيمة، لكن النعاس الذي يرقد عليه كان ثقيلاً وبطيئاً مثل قبر، وقد يكون هذا شفيعنا لمحظتنا الفريدة تلك هي ان الشاعر اثقله نعاس الموت حقاً وان جسده كف عن القصائد وان حنجرته توقفت عن النباح.

(2)

هذا الشاعر قد مات الان!

كان وجهه الجميل ندياً بعسل القصائد الدويه.. اوهكذا يلوح للناظرين الذين احتشدوا لوداع جسده المعفر بالتصفيق (كان جسده مقفى) ولم تكن عيناه مطبقتين بعد.. وكان هذا لسوء حظه، فما كان الشاعر يريدنا في لقطة موته الاولى، لقطة انفصاله عنه، لكن القدر شاء أن تكون آخر لقطة في عدسة الحياة الفسيحة، كان لابد أن ترانا عيناه نحن دون غيرنا، منتصرين على قوافيه، مزهوين بايجاد لحظة الحياة المشغولة بنا قبل ان تتعلق عدستاه في وحدة الاقحوان وفراشات النعاس، وقبل ان يستجمع فضلات قلبه الأسود ويبصقه في وجوهنا، كأنما لم يكفه بصاق القصائد التي رشها لسانه زمناً طويلاً من على المنابر والشاشات.

أما الآن وقد مات حقيقة، فلابد من مسح وجوهنا من رذاذ قصائده والتحديق على جثته المتحققة بالقوافي والحقد والأكاذيب واقناع النعاس ان يكف عن النوم بين عينيه..

والى الأبد.

(3)

الآن يغلقون العدسة أمامه. يطبقون عينيه اللزجتين لارضاء موته الكاسح، فوجودنا العظيم يقلق وجوده الميت، يحيلون جسده الى ظلام طالما تمناه علينا وسعى بكل موهبته الى ترسيخه في دفاترنا المدرسية ورسائل حبيباتنا الصغيرات.

هو ذا الشاعر قد مات اخيرا..

هذا الذي ملأت صورته شاشات الصحف وشاشات البيوت، وتفرقع صوته في الأوقات كلها وفي الفصول كلها وساح حبر قصائده على قمصان النساء، والرجال. فلطخ لحظات الحب المختلجة في الصدور.

الخطوات الدارجة في صباحاتها الى آمال ليست بعيدة على كل حال، فأحالها الى اورام وجروح وبقع دم من أجل ان تبقى عيناه الجميلتان تسطعان بالشعر، وحتى تبقى أربطة عنقه اشارات لشانق يحملها بين كتفيه لمن لا يصدق ولا به والأمطار والقصائد.

(4)

لا نريد ان نصدق هذا الكابوس! ولو لم نتماسك لتبدد الانتصار فينا!!

وعندما أغلقوا عينيه قلنا ان الشاعر في سبات.. وعندما عطروا جسده الفاخر برضاب الأقحوان وعسل الطيور، قلنا، لقد فعلوا ذلك، قبل ان تفوح رائحة قصائده الجلجلة وتتمزق أطر لونها الشاعر طوال حياته الفذة بألوان الزنابق والشقائق وعبق العصافير، حتى كدنا ننسى حقيقة الواننا في اكتظاظ قصائده ومطولاته المعروفة، تلك التي كان يرى فيها لون البكاء كشذى الأمطار. ولون الدم كان بألوان قمصانه المستوردة. ولون الحروب مثل بياض الصباحات المبكرة.. هكذا كان يحاصر الطبيعة وينتصر عليها ويحاصرنا علناً فلا نملك الا تصديقه دائما.

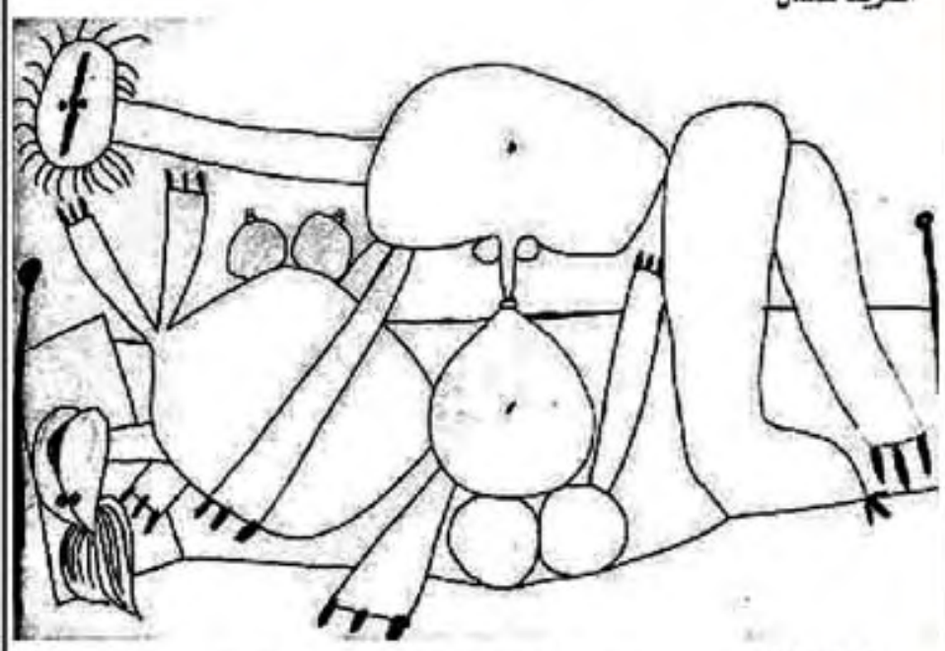

(5)

هذا الشاعر كان يفرض علينا التحية..

لكنه قد مات الآن..

كانت يده المشرعة علينا مثل سيف قد شلها الموت في هذه اللحظة الخارجة من الزمن الاسود والداخلة في زمن الانعتاق الجديد..

كانت يده ملقاة الى جانبه مثل حية ميتة..

أين كان الموت قبل اللحظة الخارقة؟

(6)

عندما كان يغضب الشاشات بحاجبيه المزجج وأسنانه الذهبية وضحكته الكثة.. كنا نخاف حقاً! فقد كان يعتقد ان الكلاب تغرد في لحظات التجلي، وان جرذان الحقول هي اكثر وفاءً من الشجر الأخضر. وان اطفال المدارس هم نتاج الحمير، وهكذا كان يسوطنا بقصائده العملاقة ساعات طويلة حتى خارج البيت المعتاد، وكنا نرتعب عندما يطل بعينيه البراقتين يسبقه نباح قصيدته واشتعال اسنانه الذهبية وبريق حاجبيه اللماع..

قالوا: مات الشاعر!

صدقنا وما صدقنا!

فتشنا في (جواريره) عن قصائد لم يتجل بها بعد ولم يعذب بها ايامنا بعد، فوجدنا مئات القوافي للعدة لمناسبات مضت واخرى ستاتي وما كان علينا سوى ان نحرقها على جثته الفاطسة..

بين اصابع قدمي هذا الشاعر وجدنا روثاً عالقاً وفراشات ميتة وأظافر خرجت من غير مواضعها.. كما وجدنا في تلك الفراغات الملوثة، بين الاصابع المصقولة، غرفاً للاعدام وعلبا خثر بها قصائد جاهزة لسلخ قلوبنا المتورمة..

بين اصابع يديه وجدنا قلماً على شكل حربة! وضفدعاً يغني!

في فروة شعره وجدنا ثلاثين قصيدة مقروءة أبدلت قوافيها واصبحت جاهزة للانشاد في أية لحظة مطلوبة وهي تتغنى بالقناطر والاسفلت وكرب النخيل وليف الحمامات.

ومن عينيه المقفلتين تسربت دماء لقصائد قالها في مناسبات الختان المعروفة، فساحت مثل زنبق اسود على وجهه المفروش كعلبة لحم بقري مستورد، فيما اخرجنا من تحت لسانه سوطاً مفتولاً بطول قامته الجميلة.

قلبنا جسده متلذذين بهذا الانطفاء العارم، متاملين التاريخ الفاسد الذي كتبه علينا والجغرافية المزورة التي صالت فيها خيوله البلقاء والرنين الصدئ الذي بثه صليل قوافيه والغبار الذي سواه نوراً منيراً على عيوننا والدم الذي جعل منه نهراً عملاقاً بعد دجلة والفرات في كل قصائده التتالية التي تتسابق مع كلماتها وتصطدم بحروفها..

(7)

تأملناه بانتصار.. ولكن بألم..
هذا الشاعر الذي مات.. فوجدنا بين أسنانه، ثلاثة اطفال،
وبقايا نساء،
وخواتم ماس،
ومستندات لم نفك رموزها بعد......!!!!

لم نتحيز الى عمارتنا كما ينبغي، ولم تعد الثقافة العراقية مكترثة لهموم جنس من مثقفيها.. وهو "المعماري" واشكالية وعي لـ"مهنة" مغايرة في تطلباتها وطبيعة أهميتها المعاصرة.. وهي "العمارة". ولم يكن فعل الازاحة هذا، أو أفعالها، قد تم بقصد من ثقافتنا ومثقفينا الاخرين، المنتمين الى نوع آخر من الممارسة. لقد كان خياراً متبادلاً لكلا الطرفين. في البدء حينما مارسه المعماريون أنفسهم، بذريعة اجراءات "مهنتهم" الخاصة، والشديدة التعقيد.. ومن ثم، بدافع عدم رغبتنا في معرفة نتائج خبرة، متمايزة حقبياً وباهضة الكلفة..

عن ضرورة عودة المعماري الغامض واستعادة ثقافة العمارة المبهمة

سعد القصاب

كما إننا، لا نحبذ "المكان" لسنا مولعين بتفسيره، لطالما انتابنا الارباك عند الانتباه إليه، والملل من وصفه، إن صدمة الأحداث الخبيثة، ولا نهايتها التي اشتبكنا معها والتي اشتبكت فينا، لم تؤد إلى عطب ذاكرتنا بل ورؤيتنا لذلك. ودفعتنا إلى تفضيل شيء آخر، الزمن والتاريخ، أما "المكان" فقد تحول إلى حكاية، إلى ما يشبه حنين طفولة ومسرات عابثة في الأزقة والمحلات، أو مأوى لا يضم سوى خيباتنا، بعد اكتشاف لؤم الحاضر ونواهيه.

علاقة، كثيراً ما حرضتنا على الهجرة منه.

لذا، تركنا المعماريين لوحدتهم، وتركونا من خلال غيابهم.

إن ما نبحث عنه هم "فرسان الزمان"، أما هؤلاء.. "فرسان المكان" ليسوا بالنسبة لنا، سوى "ضباط صف"..!

أقول، لا يوجد ما يعرف بحضورهم الاستثنائي، لا شاخص معماري يثير الدهشة، ولا تلك الوسائل المقروءة والمرئية التي تزود أو تعرف سواء بتمايزهم أو امتثاليتهم، ولا معارض تدل على أفكار وطرح تصميمي تجعلنا على دراية بوعيهم وبلاغة خيالهم.

وأخيراً من يهتم بعزلة المعماريين، إنهم حتى بدون مرفق يعنى بتنظيم همهم المهني والفني.

أستدعي هنا، مقارنة بينها الناقد المعماري "د. خالد السلطاني" في احد موضوعاته لتعيين واقع العمارة، والمعماريين، والذي أقر فيها، انه في الوقت الذي استطاع فيه التشكيليون العراقيون أن يخلقوا لهم جمهوراً يرتاد ويتابع نشاطهم ومعارضهم ونقاداً يتفحصون نتائجهم ويتمنون رؤيتهم، لم يكن الأمر كذلك مع "العمارة"، التي بقيت ظاهرة تتعرض للصمت واللامبالاة، وهذا ما جعل منها "مهنة غير مفهومة ومبهمة في كثير من الأحوال ومن المهندس المعماري ذاته إنساناً ذا ميول فردية ظاهرة ومنغلقة على نفسها".

ولكن هل ينتهي الأمر عند أسباب كهذه؟ خاصة، وإن العمارة الحديثة لا يمكن لها العيش والثقة بوجودها إلا في أجواء من التطور والتقدم المادي، وبدافعية ثقافة منيعة تطل على المستقبل، وتشير دائماً باتجاه المدنية والحضارة.

ليس من الغرابة إذاً، أن تتضاءل لدينا حرية المصمم المعماري وتفرده الابداعي، أمام رغبة الجهة المنتفعة لأي مشروع، مع ما يرشح عن ذلك من اتجاه لا يتعلق بمستوى الكفاءة المضمونة والجمالية والوظائفية للمنشأ المعماري، قدر خضوعه لتوجهات سياسية واقتصادية معينة من الجانب الرسمي، وغلبة الطموحات الاستثمارية عند تعلق الأمر بالمشاريع الخاصة، والوصول الى نتائج مشوهة بافتراض ذائقة المستفيد كما لدى ما يسمى بمحدثي النعمة.

ولكن لا يجب علينا أن نتصور العمارة هي أشبه بأبنية نسكنها كيفما اتفق، وإن فكرها بمثابة هموم مهنية ليس إلا.. والنظر إلى المعماري أيضاً في كونه لا يختلف عن "المقاول" في شيء،

من هنا، لابد أن يكون الحديث مختلفاً عن العمارة العراقية، التي لم تكن تجربة طارئة، أو خبرة لم تؤسس لتقاليدها كما يجب. فهي، ومنذ أكثر من نصف قرن، استطاعت أن تجترح لذاتها حضوراً طليعياً، خاصة مع تجارب معمارييها الرواد من الجيل الثاني، الذي افترض مشروعه لرسم واقع معماري انتظمت فيه رؤى جادة، مع محاولات لابتكار مفاهيم معينة في العملية التصميمية والممارسة المعمارية.. إذا كان بعضهم يميل إلى تكريس صداقة "الأسلوب العالمي" فيما ظهرت خبرات أخرى تعانيها من خلال تراثها المحلي والوطني.

وتم تسجيل تلك المشاريع كمعالم خلاقة على الصعيد الاقليمي والعربي. ولكن ماذا أصاب هذا الجهد، الذي غيب حضوره عن قصد وقطع تواصله، أجد إن المعماريين وحدهم من يستطيع الإجابة عن أسباب محنة قد لحقت بهم، وبعمارتنا التي تحولت ونحن على عتبات الألفية الثالثة، إلى عمارة "دون دليل"، بعيدة تماماً في تعبيرها عن مكانها وزمنها الحقيقي، وطموحها للبقاء في المستقبل.

..عمارة افتقدت إلى النوع، فبعض شواخصها الحاضرة لم يكن سوى إعادة لتشكيل تكوينات معمارية قديمة، بخيال هجين، فيما اتسمت شواخص أخرى بأشكال وكتل ثابتة غير حيوية.

عمارة غفلت عن عصرها وعن روح المكان الذي شخصت فيه. افترض ان غلبة الجانب المهني، التقليدي على الجانب الفني والجمالي أحد أسباب حضور عمارة كهذه، وفي ظل غياب معماريين ليس باعتبارهم فقط خبراء في تكنولوجيا البناء، بل هم أيضاً تعبيريون من خلال أعمالهم، من عمارة تفصح عن انتباهتها للفن وممارسته له في منشأها، كما في افتقادنا إلى ذلك النوع من النقد الذي يشيع ثقافة وفكراً لا يكتفي بالكشف عن الكفاءة الوظيفية والجمالية، بل يبين اعتراضه الكبير إزاء العمل المعماري الرديء.

إن العمارة ومنذ تاريخها الطويل، قد خضعت كثيراً، لمراحل متعددة من المغامرة.

..ولكن في هذا الزمن، فيما نطل عليه من معنى، مغاير، شديد الالتباس، لازلنا في حاجة إلى عمارة أكثر جرأة وليس أكثر فداحة، تبشر بنظام انساني واجتماعي كثير الانجازات، عمارة تكشف لنا عن قيم فكرية وعملية صائبة.

إن المدن ومن خلال عمارتها، لا تكتفي كي تكون أسلوباً معيناً لتنظيم السكن والعمل والانتاج، بل كذلك تظهر نبلها وروعتها بل وتكون شاعرية وكثيرة الأمل.

..وكم هي حاجتنا إلى أمل منيع كهذا.